علوم التصوف ومكانة الصوفية

للمؤرخ الصوفى الاول
السراج الطوسى

ابو نصر عبد الله بن على السراج الطوسى ، هو أكبر وأشهر وأقدم من أرخ للتصوف والصوفية ، وكتابه الخالد « اللمع » لا يزال العمدة والحجة ، فى علوم التصوف ورجاله ، ومقاماته وأحواله ، وتاريخه ومعارفه ، وقد نشره لاول مرة فى التاريخ المستشرق الانجليزى « رنولد نيكولسون » فى مطبعة بريل فى مدينة ليدن بهولندا فى عام ١٩١٤ م ٠

ونحن نقتبس هنا بحثا من روائعه عن « التصوف والصوفية » وقد اعترف شيوخ التصوف القدامى بأن « اللمع » هو كتابهم الاول ، ودستورهم الجليل الرفيع ، والدليل الهادى الى حقائق التصوف من نبعها الصافى ، ومؤرخها الصادق الأمين ٠

وسترى فى هذا البحث أجوبة حاسمة ، للمسائل التى لايزال الناس يتساءلون عن القول الفصل فيها : انه شيخ المؤرخين يخاطبك ويحادثك :

« ٠٠٠ قال الشيخ أبو نصر ، سألنى سائل عن البيان عن علم التصوف ومذهب الصوفية ؟ وزعم أن الناس اختلفوا فى ذلك ، فمنهم من يغلو فى تفضيله ورفعه،فوق مرتبته ، ومنهم من يخرجه عن حد المعقول والتحصيل، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل ، ومنهم من ينسب ذلك الى التقوى والتقشف ولبس الصوف ، والتكلف فى انتقاء الكلام واللباس ، وغير ذلك ، ومنهم من يسرف فى الطعن وقبح المقال فيهم !؟

فسألنى أن أشرح له من ذلك ماصح عندى من أصول مذهبهم المؤيد بكتاب الله عز وجل ، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتخلق بأخلاق الصحابة والتابعين ، والتأدب بآداب عباد الله الصالحين ، وأقيد ذلك بالكتاب والاثر بالحجة ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويعرف الجد من الهزل ، والصحيح من السقيم ، ويرتب كل نوع منه فى موضعه

فاقول : وبالله التوفيق ، ان الله تبارك وتعالى أحكم أساس الدين وأزال الشبهة عن قلوب المؤمنين ، بما أمرهم به من الاعتصام بكتابه ، والتمسك بما وصل اليهم من خطابه ، اذ يقول جل جلاله « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . وقال عز وجل «وتعاونوا على البر والتقوى» ثم ذكر الله تعالى أفضل المؤمنين عنده درجة ، وأعلاهم فى الدين رتبة ، فذكرهم بعد ملائكته ، وشهد على شهادتهم له بالوحدانية ، بعد مابدأ بنفسه وثنى بملائكته ، فقال عز وجل : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال « العلماء ورثة الانبياء »

وعندى والله أعلم أن أولى العلم القائمين بالقسط ، الذين هم ورثة الانبياء هم المعتصمون بكتاب الله تعالى ، المجتهدون فى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المقتدون بالصحابة والتابعين السالكون سبيل أوليائه المتقين ، وعباده . هم ثلاثة أصناف أصحاب الحديث ، والفقهاء ، والصوفية فهؤلاء الثلاثة من أولى العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء ، وكذلك أنواع العلوم كثيرة ، فعلم الدين من ذلك ثلاثة علوم : علم القرآن ، وعلم السنن والبيان ، وعلم حقائق الايمان ، وهى العلوم المتداولة بين هؤلاء الاصناف الثلاثة ، وجملة علوم الدين لا تخرج عن ثلاث :

آية من كتاب الله عز وجل ، أو خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو حكمة مستنبطة ، خطرت على قلب ولى من أولياء الله تعالى ، وأصل ذلك حديث الايمان ، حيث سأل جبريل عليه السلام النبى صلوات الله عليه، عن أصول ثلاث ، عن الاسلام والايمان والاحسان ، الظاهر والباطن والحقيقة

فالاسلام ظاهر ، والايمان ظاهر وباطن ، والاحسان حقيقة الظاهر والباطن ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ، وصدقه على ذلك جبريل ، والعلم مقرون بالعمل ، والعمل مقرون بالاخلاص ، والاخلاص ، أن يريد العبد بعلمه وعمله وجه الله تعالى

وهؤلاء الثلاثة أصناف ، فى العلم والعمل متفاوتون ، وفى مقاصدهم ودرجاتهم متفاضلون ، وقد ذكر الله تعالى تفاضلهم ودرجاتهم ، فقال عزوجل « والذين أوتوا العلم درجات » وقال : « ولكل درجات مما عملوا » وقال : انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أكفاء متساوون كأسنان المشط،لافضل لاحد على أحد الا بالعلم والتقوى »

فكل من أشكل عليه أصل من أصول الدين وفروعه وحقائقه وحدوده وأحكامه ، ظاهرا وباطنا،فلا بد له من الرجوع الى هؤلاء الاصناف الثلاثة ، أصحاب الحديث ، والفقهاء والصوفية ، وكل صنف من هؤلاء ، مترسم بنوع من العلم والعمل ، والحقيقة والحال ، ولكل صنف منهم فى معناه علم وعمل ، ومقام ومقال ، وفهم ومكان وفقه وبيان ، علمه من علمه ، وجهله من جهله

وأنا أبين لك من ذلك ان شاء الله تعالى على حسب الطاقة ، ان كل صنف من هؤلاء ، بأى نوع من العلم والعمل ترسموا ، وبأى حال تفاضلوا، وأيهم أعلى طبقة ، بما لا يدفعه عقلك ، ويحيط به فهمك .

ثم يقول بعد أن شرح مقام رجال الحديث ، ورجال الفقة وعلومهم : ثم ان طبقات الصوفية قد اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث فى معتقداتهم ، واجتنابا لما نهاهم الله عنه ، وليس من مذهبهم النزول على الرخص ، وطلب من البدع ، واتباع الهوى ، ومنوطا بالاسوةوالاقتداء ، وشاركوهم بالقبول والموافقة فى جميع علومهم .

ولم يختلفوا معهم الا فى استحباب الصوفية فى مذهبهم ، الاخذ بالاحسن والاولى والأتم احتياطا للدين ، وتعظيما لما أمر الله به عباده ، واجتنابا لما نهاهم الله عنه ، وليس من مذهبهم النزول على الرخص ، وطلب التاويلات والميل الى الترف ، والتعالى ، وركوب الشبهات ، لان ذلك تهاون بالدين وتخلف عن الاحتياط .

وانما مذهبهم التمسك بالاولى والأتم فى أمر الدين ، فهذا الذى عرفنا من مذاهب الصوفية ورسومهم فى استعمال العلوم الظاهرة المبذولة المتداولة بين طبقات الفقهاء ، وأصحاب الحديث

ثم انهم بعد ذلك ارتقوا الى درجات عالية ، وتعلقوا بأحوال شريفة ، ومنازل رفيعة ، من أنواع العبادات ، وحقائق الطاعات ، والاخلاق الجميلة ، ولهم فى معانى ذلك تخصيص ليس لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث

فأول شىء من التخصيصات الصوفية التى تفردوا بها عن جملة هؤلاء الذين ذكرتهم ، من بعد اداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، ترك مالا يعنيهم وقطع كل علاقة تحول بينهم وبين مطلوبهم ومقصودهم ، اذ ليس لهم مطلوب ولا مقصود غير الله تعالى

ثم لهم آداب وأحوال شتى ، فمن ذلك القناعة بقليل الدنيا عن كثيرها ، وترك العلو والترفع ، وبذل الجاه ، والشفقة على الخلق ، والتواضع للصغير

التكبير والايثار فى وقت الحاجة اليه ، وبذل الندى ، وكف الاذى والتلبس بمكارم الاخلاق وأعالى الامور وحسن الظن بالله ، والاخلاص فى المسابقة الى الطاعات ، والمسارعة الى جميع الخيرات ، والتوجه الى الله تعالى ، والانقطاع اليه ، والصبر على بلائه والرضا عن قضائه ، والصبر على دوام المجاهدة ، ومخالفة الهوى ، ومجانبة حظوظ النفس ، والمخالفة لها ، اذ وصفها الله تعالى ، انها أمارة للسوء ، والنظر اليها بأنها أعدى عدوك الذى بين جنبيك كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم أن من آدابهم أيضا ، مراعاة الاسرار ، ومراقبة الملك الجبار ، ومداومة المحافظة على القلوب ، بنفى الخواطر المذمومة ، ومساكنة الافكار الشاغلة التى لايعلمها غير الله عز وجل ، حتى يعبدوا الله تعالى بقلوب حاضرة ، وهموم جامعة ، ونيات صادقة ، وقصد خالص ، لان الله عز وجل لايقبل من عباده اعمالهم الا ما كان لوجهه خالصا ، قال الله عز وجل « ألا لله الدين الخالص »

ومن آدابهم وشمائلهم وتخصيصهم أيضا ، التعرض لسلوك سبل أوليائه ، والنزول فى منازل أصفيائه ، ومباشرة حقيقة الحقوق ببذل الروح ، وتلف النفس ، طمعا فى الوصول الى المراد ، وأن لايريد الا مايريد ، وهذا فى أول باد من بوادى الحقائق

وللصوفية أيضا تخصيص من طبقات أهل العلم باستعمال آيات من كتاب الله تعالى متلوة ، وأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مروية ، ما نسختها آية ، وما رفع حكمها خبر ولا أثر .

يدعو ذلك الى مكارم الاخلاق ، ويحث على معالى الاحوال ، وفضائل الاعمال ، وينبىء عن مقامات عالية فى الدين ، ومنازل رفيعة خص بذلك طائفة من المؤمنين ، وتعلق بذلك جماعة من الصحابة والتابعين ، وذلك آداب من آداب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلق من أخلاقه ، اذ يقول صلوات الله عليه « ان الله أدبنى فأحسن تأديبى » ، واذ يقول الله عز وجل « وانك لعلى خلق عظيم »

وذلك موجود فى دواوين العلماء والفقهاء ، وليس لهم فى ذلك تفقه واستنباط ، كتفقههم فى سائر العلوم ، وليس لغير الصوفية من أولى العلم القائمين بالقسط فى ذلك نصيب غير الاقرار به ، والايمان بأنه حق ، وذلك مثل حقائق التوبة وصفاتها ، ودرجات التائبين وحقائقهم ، ودقائق الورع ، وأحوال الورعين ، وطبقات المتوكلين ، ومقامات الراضين،ودرجات الصابرين

وكذلك فى باب الخشية والخشوع ، والمحبة ، والخوف ، والرجاء ،

والشوق ، والمشاهدة ، والانابة ، والطمأنينة ، واليقين ، والقناعة . وهذه أحوال أكثر من أن يحصى عددها ، ولكل حال من ذلك أهل وطبقات ولهم فى ذلك حقائق ومشاهدات ، وأحوال ومراقبات،وأسرار واجتهادات، ومقامات ودرجات متباينات ، وارادات متفاوتة ، وتفاضل فى قوة الارادة ، واعتراض الفترة ، وغلبات الوجد ، ولكل واحد من ذلك ، حد ، ومقام ، وعلم ، وبيان ، على مقدار ماقسم له من الله عز وجل

وللصوفية أيضا تخصيص فى معرفة الحرص والأمل ودقائقهما ، ومعرفة النفس وأماراتها وخواطرها ، ودقائق الرياء والشهوة الخفية ، والشرك الخفى ، وكيفية الخلاص من ذلك ، وكيفية وجه الانابة الى الله عز وجل ، وصدق الالتجاء ، ودوام الافتقار والتسليم والتفويض والتبرى من الحول والقوة .

وللصوفية أيضا تخصيص فى علوم مشكلة على فهوم الفقهاء والعلماء ، لان ذلك لطائف مودعة فى اشارات لهم ، تخفى فى العبارة من رقتها ولطافتها، وذلك فى معنى العوارض والعوائق والعلائق والحجب ، وخبايا السر . ومقامات الاخلاص ، وأحوال المعارف ، وحقائق الاذكار ، ودرجات القرب، ومنازل التفريد ، وحقائق العبودية ، وفناء رؤية الاعواض ، وبقاء رؤية المعطى ، بفناء رؤية العطاء ، وعبور الاحوال والمقامات ، وفناء رؤية القصد ببقاء رؤية المقصود

فالصوفية مخصوصون من أولى العلم القائمين بالقسط بحل هذه العقد ، والوقوف على المشكل من ذلك ، والممارسة لها بالمنازلة والمباشرة ، والهجوم عليها ببذل المهج ، حتى ليخبرون عن طعمها وذوقها ، ونقصانها وزيادتها ، ويطالبون من يدعى حالا منها بدلائلها ، ويتكلمون فى صحيحها وسقيمها ، وهذا أكثر من أن يتهيأ لاحد أن يذكر قليله ، اذ لاسبيل الى كثيره،وجميع ذلك موجود علمه فى كتاب الله عز وجل ، وفى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مفهوم عند أهله ولا ينكره العلماء المهتدون

وانما أنكر علوم التصوف جماعة من المترسمين بعلم الظاهر ، لانهم لم يعرفوا من كتاب الله تعالى ، ولا من أخبار رسوله صلى الله عليه وسلم الا ما كان فى الاحكام الظاهرة ، وما يصلح للاحتجاج والجدل ، لقد اشتغلوا بعلوم تخفف عنهم مؤن التكاليف ، وتوسع عليهم فى الرخص وتفتح لهم أبواب التأويلات ، وتقربهم من حظوظ البشرية ، وتخفف عنهم مجاهدة النفس ، ومن هنا تفرقت بهم السبل ، وابتعدوا عن أولى العزم وأرباب القلوب والمجاهدة

وهذا فرق مابين الطائفتين . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا

* * *